المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد..

فمن خصائص القرآن الكريم، دستور الدعوة الإسلامية قديماً وحديثاً، أنه كتاب حياة. حياة للنفوس، حياة للعقول، حياة للفرد وحياة للأمة. موكب حياة يسير البشرية في الطريق إلى الله تعالى. أنه كتاب موضوعه الحياة فإذا ما تحدث عن الكون، وإذا ما ضم بين دفتيه الكثير من الآيات العلمية فإنما يريد أن يفتح قلوب المؤمنين إلى ما يحيط بهم وما يستقر منهم من آيات الله. لتكون حياتهم كلها عبادة وكلها صلة بخالق هذه الآيات وخالق الإنسان. أنه لا يرضى أن تكون صلة الإنسان به عن طريق طقوس محدودة يؤديها ولكنه يريد أن تكون هذه الصلة كل الحياة. ومن خصائص هذا الكتاب الكريم أنه وحده معجزةُ الإسلام. إن الإسلام ليس رسالة وقتية محدودة بزمان ومكان حتى تكون معجزته من النوع الحسي الذي يراه فقط أهل زمان ومكان محددين. أنه رسالة عالمية إنسانية، ولذا كانت معجزته عالمية خالدة. كانت لهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه وكلما تقدم البشر وكلما ارتقوا سلم المعارف كلما وجدوا في هذا الكتاب معجزة لم يكتشفها من كان قبلهم. إن الإسلام لا يقف خلف البشرية ولكنه دوماً سابق لها آخذ بيدها دافع إياها على الطريق السوي الذي لا عوج فيه.

إن الآيات العلمية في القرآن الكريم لا تهدف إلا أن تزيد من المعرفة النظرية لبني البشر. فالقرآن كتاب حياة وإعجاز يسير البشرية في رحلتها في هذا الكون الفسيح.

إنها عناصر إعجاز هذا الكتاب الذي لا يخلق على كثرة الرد لأنه قرآن كريم كما وصفه الله تعالى فكأنه كما شبهه الله حكيم يتجاوب معك، يأخذ بيدك على طريق الحكمة.

ففي كل مرة تقرؤه تجد فيه آيات ولفتات لم تكن قد انتبهت إليها في المرة السابقة. وكل جيل يكتشف فيه من المعاني ما يبهره ويجعله يعيش في مهرجان دائم من المعجزات.

ولعل من الملائم بعد هذه المقدمة أن أشير إلى نقطتين هامتين.

الأولى: إن الآيات التي سنعرضها في هذا البحث (النبات في القرآن الكريم) ليست كل ما ورد في القرآن من آيات علمية ولكنها مجموعة من الآيات نعتقد أنه أصبح بإمكان العقل البشري أن يفهمها على ضوء العلم الحديث.

الثانية: إننا لم نربط آيات القرآن بنظرية من النظريات لأن النظريات تختلف في التفاصيل ولفتات القرآن الكريم عامة.

ولهذا جاء في هذا البحث (النبات في القرآن الكريم) مبيناً النعمة الإلهية التي أنعمها الله تعالى على بني آدم. ولأهمية النباتات بوصفها مادة ضرورية للحياة البشرية، طعاماً وتدفئة ولباساً ودواءاً دعا إلى تعالى بني آدم للاستفادة من هذه النعم الإلهية لحاجتها الضرورية في الحياة. وفيما يأتي نبين منافع النبات وما فيها من لفتات علمية.

المطلب الأول: منافع النباتات من الناحية الغذائية والصحية.

المطلب الثاني: المنافع الجمالية في النباتات والأشجار.

المطلب الثالث: دورة الحياة في الأرض.

نفعنا الله بالقرآن وهدانا إلى الحق وثبتنا على الجهاد في سبيله وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المطلب الأول
منافع النباتات الغذائية والصحية

لقد بث الله على سطح هذه الأرض من الكائنات وخلق من النباتات أصنافاً وأنواعاً كثيرة العدد مختلفة المنافع وجعلها كلها تحت يد الإنسان في أكثر من موضع إلى هذه المنح الربانية والنعم الإلهية ووجهته إلى إدراك أهمية هذه الثمار ومنافعها على اختلاف أنواعها والنباتات تعد من جملة بدائع صنع الله تعالى في عالم المخلوقات والتكامل في كيفية تكوينها وجميل صنعها وهذا يقوي من إيمان الإنسان بالخالق العظيم.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**﴾[1]. توجيه قرآني لكيفية استغلال ثمرات النخيل والأعناب.

فالآية الكريمة تشير إلى أن اتخاذ المسكرات ليس برزق حسن، لأن الله تعالى وصفها بالمسكرات ثم أعقبها بالتحريم على المسلمين فكان من الأفضل استغلال هذه الثمار في مجالات غير صنع المسكرات ليتحقق الرزق الحسن الذي يعود على الإنسانية بالخير والنفع والبركة[2].

قال تعالى ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً _ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً**﴾[3]. تأمل أيها الإنسان هذا النخلة التي هي إحدى آيات الله تعالى تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ففي هذه الآية إرشاد لما في التمر من فوائد كثيرة وغذاء كامل وخاصة للمرأة الحامل التي تحتاج إلى غذاء يعوضها ما تفقده من جسمها أثناء حملها ووضعها[4].

ويأتي العلم الحديث ليكشف أن التمر من أكثر أنواع الأغذية احتواء على العناصر اللازمة لبناء الجسم حتى أن بعض العلماء سموه بمنجم المواد المعدنية لكثرة ما يحتويه من أملاح معدنية في تركيبه

كالصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والمنغنيز والحديد والفسفور والكبريت والكلور.

ويساعد الفسفور الذي يحتوي التمر على نسبة عالية من تركيب العظام كما أنه الغذاء المفضل الدماغ. والتمر غني جداً بالمواد السكرية والنشوية الطبيعية سريعة الذوبان ولذلك جاء العلم مؤخراً ليدرك فائدة إفطار الصائم على قليل من التمر لأن ذلك يبعث نشاط في جسد الصائم في أقل من ساعة بينما يحتاج الأمر إلى أكثر من ست ساعات حتى يسهل ذوبان المواد السكرية في المواد الأخرى وامتصاصها[5].

كما يضفي التمر على النفس السكينة والراحة وذلك بحده من نشاط الغدة الدرقية ولذلك ينصح الأطباء أن يأكل كل طفل عصبي المزاج بضع تمرات يأخذها لتحد من تصرفاته، ولقد أجريت في المختبرات تجارب على حيوانات غذيت بالسكر وحده فضعفت وهزلت وتساقط شعرها، وعندما غذيت بالتمر وحده عادت إلى نموها ونشاطها من جديد. ويمكننا القول أن بضع تمرات تزيد في مفعولها عن إبرة من الكالسيوم، ويعتقد كثيراً من العلماء أن احتواء التمر على عنصر المغنسيوم يمنع من الإصابة بمرض السرطان. والتمر يجعل البصر نافذاً ثاقباً في الليل فضلاً عن النهار وقد استعمله الطيارون الأمريكيون إبان الحرب العالمية الثانية أثناء غاراتهم الليلية كي يعينهم على تمييز الأهداف في الظلام ومن المعروف أن سكان الصحراء مشتهرون بالرؤية من مسافات بعيدة وذلك لاعتمادهم على التمر في غذائهم.

ويعمل التمر كملين يتخلص الإنسان بتناوله من حالات الإمساك المزمن ويقدر العلماء ما ينفقه سكان الولايات المتحدة الأمريكية على الحبوب الملينة بما يزيد على عشرة ملايين دولار سنوياً ولذلك بدأ الأطباء إرشاد مرضاهم إلى استخدام التمر بدلاً من الحبوب الملينة[6].

وقد استعمل التمر كعلاج لوقف النزيف الدموي المتسبب عن البواسير والتهاب اللثة وينظف الكلى والكبد من الرمال والأوساخ بالإضافة إلى احتوائه على نسبة جيدة من المواد البروتينية والدهنية[7].

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[8].

أي وهو الله الذي أنزل من السحاب ماءاً فأخرجنا بسبب هذا الماء كل صنف من أصناف النبات المختلف في شكله وخواصه وآثاره اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان كما قال في كتابه الكريم ﴿**يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ**﴾[9].

وكذلك نخرج من طلع النخل تمراً دانية سهلة المجتنى معروفة للقاطف سهلة التناول لأن النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالتمر لا تنتظر الطول[10].

وذكر أبو حيان في تفسير قوله تعالى ﴿**مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ**﴾ أي وأخص من نبات كل شيء الزيتون والرمان كونه مشتبهاً في بعض الصفات وغير مشتبه في آخر فإنها أنواع تشتبه في شكل الورق والثمر، وتختلف في لون الثمر وطعمه. فمنها الحلو والحامض وكل ذلك دل على قدرة الصانع وحكمته المبدعة جل شأنه[11].

أما الإمام الرازي فقد فصل القول في ذلك في تفسيره (متشابه وغير متشابه) بوجوه:

الأول: إن هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل مع أنها مختلفة في الطعم واللذة.

الثاني: إن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والحجم متشابهاً في الطعم والخاصية وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فإنه مختلفة في الطعم.

الثالث: قال قتادة: أوراق الأشجار متشابهة والثمار مختلفة.

الرابع: إنك تأخذ العنقود من العنب فترى جمع حباته ناضجة حلوة مخصوصة منها بقيت على أول حالها من الخضرة والحموضة وعلى هذه التقدير فبعض حبات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابهة[12].

وواضح من الآية الكريمة ﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِ**﴾ أي بالماء ﴿**نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ ثم قوله ﴿**فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا**﴾ أي أخرج من النبات خضراً أو المقصود المادة الخضراء حباً متراكباً وكذلك تمر النخيل والأعناب والزيتون والرمان.

وتعني الخضرة في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**﴾[13].

فقد أثبت العلم الحديث أن النبات الأخضر هو الذي يحتوي على البلاستيدات الخضراء التي هي بمثابة بطاريات حية تحول الطاقة الشمسية إلى طاقة كهروكيمياوية فهو بضوء الشمس تقوم بشق الماء أو بفلقه إلى نصفين الهيدروجين والأوكسجين ثم تقوم بربط شق منه مع غاز ثاني أوكسيد الكاربون فتحوله إلى سكر ومنه يتكون النشأ والزيوت وبالتالي فإن هذه البطارية تشحن كل مخلوقات هذا الكوكب بطاقة كيمياوية مسيرة مصدرها أساساً ضوء الشمس ثم الماء وهي تنتج سنوياً من المادة العضوية أي التي تحترق أن مستها النار ألوف الملايين من الأطنان يتوارى إلى جانبها إنتاج الإنسان من الصناعة مهما بلغت، وهنا تتجلى الدقة في التعبير القرآني الكريم في قوله ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[14].

فالماء أساس الطاقة والمادة العضوية ودوام بقائها والبلاستيدة التي تشق الماء بالضوء نصفين تفعل ذلك عن طريق جزيئيات الكلوروفيل وهي المادة الخضراء التي تتخذ نظاماً فذا داخل البلاستيدة وهي تفعل ذلك بأقل كمية من الضوء بينما يحاول العلماء فعل ذلك أي إنتاج الطاقة بتوفير الهيدروجين من الماء المتوفر بكميات كبيرة من أشعة الشمس ولكنهم لم يفلحوا الآن قبل هذا الفعل بشق الماء لاحتياجهم إلى طاقة هائلة، وذلك لتعريض بخار الماء إلى درجة (2500مْ) فلنقارن بين ما يحتاجه البشر من خلال أجهزتهم ومعداتهم وبين ما تفعله البلاستيدة بشعاع ضوء بسيط ولو أفلح الإنسان بتحقيق هذه الإيجاز لحصل على ملايين الأطنان من الهيدروجين الذي ينتج كميات كبيرة من الطاقة، وهنا تتجلى معاني الآية الكريمة ويتجلى تحديها[15].

قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُون _ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُون**﴾[16]. فالنبات عالم قائم بذاته فيه فوائد تعجز عشرات الكتب عن الإحاطة بها في مختلف أنواع النباتات وما زال العلماء يجتهدون في دراسته وفي كل يوم يقطعون في كشف خصائصه أشواطاً شاسعة وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية كثير من هذه النبات ففي قوله تعالى ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون _ وَطُورِ سِينِين**﴾[17].

وقال تعالى ﴿**وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء**﴾[18]. وقال ﴿**زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء**﴾[19].

فشجرة الزيتون المباركة تحوي على فيتامين (د) الذي يقي الأطفال شر الكساح وتقوس الساقين ويضفي إلى الوجه حمرة وإشراقاً، كما يمتاز زيت الزيتون عن غيره من الزيوت باحتوائه على مواد لها أثر كبير في تغذية النسيج السنجابي في الدماغ وبهذا يمكن القول أن له أثر جيد في زيادة القدرة على التفكير بالإضافة إلى احتوائه على مواد عطرية تعد

من المشهيات أثناء تناول الطعام[20]. ويعد الزيت من خير الأدوية المحرضة للكبد على الإفراز وتناول ملعقتين كبيرتين منه قبل الطعام دواء ممتاز من أدوية الإمساك وهو أسهل الزيت هضماً وقريب التركيب من الإدهان الموجودة في حليب الإنسان لهذا فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم[21].

والأطباء يوجهون الأمهات لإطعام أطفالهن الخبز مع الزيت لأنهما يحتويان على جميع العناصر اللازمة لتنمية أجسام الأطفال. وقد ذكر الرسول ρ في حديث أمرَ الأكل منه والإدهان فقال: **(كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة)**[22].

والنباتات الأخرى التي أشارت إليها الآية الكريمة هو التين الذي يعد من أغنى المواد الغذائية بالفيتامينات وينصح باستعماله على نطاق واسع للحوامل والرضع، ولأصحاب الإمساك الشديد وينفع منقوعه في التهابات الجهاز النفسي كما أنه يقوي الكبد ويذهب عسر البول والسعال وأوجاع الصدر وخشونة القصبة والبواسير كما يزيل رائحة الفم[23].

ولقد عد الإمام الرازي فوائد التين فذكر أنه يطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويفتح مسام الكبد والطحال.

وقال أبو ذر: أهدى للنبي ρ سلٌ تين، فقال: **(كلوا وأكل منه ثم قال: لو قلت أن فاكهة نزلت من الجنة، لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس).؟؟؟؟**

وعن علي بن موسى الرضى رضي الله عنهما: (التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج، وأما كونه دواء فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن)[24].

ولقد نبهت الآية الكريمة إلى أهمية النباتات في حياة الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا _ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا**

وَمَرْعَاهَا _ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا _ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُم﴾[25]. فهذه المراعي بما فيها من نباتات هي من أجل نفع الإنسان والحيوان على السواء.

فإن من الواجب على الإنسان استغلال هذه النعم التي أنشأها الله تعالى لهم من الأرض من الشجر والنبات الذي يستعملون منه أقواتهم فليأكلوا من هذه الخيرات ويستثمروها فيما يعود عليهم بالنفع والفائدة وليؤدوا حق الله تعالى فيها، فإنه سبحانه وتعالى قد أباح ذلك لهم فليس لأحد غيره أن يحرم شيئاً منه عليهم لأن التحريم حق الله تعالى الخالق للعباد والأقوات جميعاً[26].

والله تعالى أخبر بأنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾[27].

قال الزمخشري: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾ أي أن الله تعالى فالق ما تزرعون من النبات والشجر وشاقه بقدرته وتقديره يربط الأسباب بمسبباتها كجعل الحب والنوى في التراب وأرواء التراب بالماء، وفي ذلك إيماء إلى كمال قدرة الله تعالى ولطيف صنعه وبديع حكمته[28].

و﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾ أي الحيوان النامي من النطف والبيض والحب والنوى ومخرج هذه الأشياء الميتة من الحيوان النامي فإن قلت كيف قال مخرج من الحب بلفظ اسم الفاعل بعد قوله ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾ قلت عطفه على خالق الحب والنوى لا على الفعل، ويخرج الحي من الميت موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فالق الحب والنوى، لان خلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي في حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ**﴾ إلى ذلك المحي والمميت هو الله تعالى الذي تحق له الربوبية ﴿**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره[29].

ويقول الإمام الرازي: قوله تعالى ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**﴾ كالبيان والتفسير لقوله ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾ لأن خلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحي من الميت[30].

ويقول عبد الرزاق نوفل: ينبت النبات عموماً من بذرة تتوافر لها ظروف خاصة أهمها حيوية الأجنة فيها وتحافظ البذور على حيويتها لمدد طويلة تعد في ذاتها دليلاً على وجود الله تعالى، ويجب توافر الماء الضروري للإنبات والحرارة المناسبة فهو كائن حي يعيش ويحيا ويتنفس بل ويحس وإذا نبتت البذرة حتى يستطيل عوده ويضرب في الأرض ليأكل منها شأنه شأن الجنين في الإنسان والحيوان يتغذى من أمه وهو في بطنها ثم من لبناه ثم يستقل عنها ويعتمد على نفسه في غذائه عندما يقوى عوده فهل غير الله تعالى أودع في البذرة الحياة وهل غير الله وهب الجذر قوة التعمق في الأرض وإخراج الساق وأنبت عليه الأوراق فالأزهار فالثمار حياة دقيقة جليلة عاقلة رشيدة هدفها حفظ النوع وامتداد الحياة ونفع البشر فسبحان الحي منبع الحياة[31].

وأخراج هذا الشجر بمقدار معلوم يتناسب والمنفعة التي تحصل منه، فلا يزيد أو ينقص ولهذا وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بأنه ﴿**مَّوْزُونٍ**﴾ وفيه دليل على التناسق في الخلق الدال على الحكم الإلهية البالغة، والقدرة العجيبة التي تعين كل شيء بمقدار، وتزن كل موجود بميزان بحيث تتحقق فيه المنفعة التي أرادها الله تعالى لعباده ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ _ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ _ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[32].

قال الإمام الرازي: اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة. قال القاضي وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به

فينبت تعالى من الأرض ذلك المقدار ولذلك اتبعه بقوله ﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾ لأن ذلك الرزق بحسب الأكل والانتفاع بالتجارة فيه[33].

والوجه الثاني: إن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنباتات والحيوان بواسطة طبائع هذا العالم، فلابد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشمس والكواكب من الحر والبرد مقدار مخصوص، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنباتات والحيوان، فالله تعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع[34].

وقال الراغب الأصفهاني: وقيل بل ذلك إشارة إلى كل ما أوجده الله تعالى وأنه خلقه باعتدال كما قال ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[35]. فالآية ظاهرة الدلالة على أن ما يتفضل الله به على عباده إنما هو وليد الحكمة والقدرة التي تجعل لكل شيء مقداره وميزانه الذي ينفع به ولا يضر.

فهذه المفاهيم التي ردت الإنسان إلى التأمل الفكري وفتحت أمام عقله آفاقاً لا تحد من الاستدلال والاستبصار وحققت له وجوده بين عناصر الطبيعة وآفاقها وجعلته يشعر بأنه السيد في هذا الكون والمستفيد منه بهذا التسخير الذي أودعه الله فيها فجعله في خدمة الإنسان دائبة لا تكل ولا تمل.

ولقد ربط القرآن الكريم بين هذه النعمة الحاضرة ونعمة أخرى قادمة تلك هي نعمة الجنة التي فيها، لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيها من الشجر ما يثير عبطة الإنسان ويضاعف له السرور فجعل هذه النعمة الحاضرة مقدمة لتلك النعمة وحث الإنسان بعد ان أبان له عظم تلك النعمة للعمل لها وفق ما رسمه الله تعالى له من منهج منها نعمة الشجر التي توصله إلى التمتع بها والحصول عليها.

وبذلك يكون القرآن الكريم قد ربط بين النعم الإلهية وبين سلوك الإنسان في هذه الحياة فجعل صورتها الحاضرة حافزاً لتلك الصورة المتأملة في عالم الغيب التي وعد الله سبحانه وتعالى بها عباده الأخيار والله لا يخلف وعده ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[36].

المطلب الثاني
المنافع الجمالية في النباتات والأشجار

لقد فصل القرآن الكريم مظاهر النعمة في النبات والأشجار فبين أن لها جانبين، جانباً مادياً، وجانباً معنوياً قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[37]. فأما الجانب المادي فكونه طعاماً للإنسان يواصل به وجوده في الحياة وكونه طعاماً لما هو في حوزة الإنسان من الحيوانات النباتات يقتات به ويعيش عليه فالنباتات والأشجار سخرت لنفع الإنسان وهي أنعام على الإنسان نفسه وكذا تسخير الحيوان من نعم الله تعالى يظهر هذه المفهوم من خلال الآية الكريمة التي يقول الله تعالى فيها ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى _ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى**﴾[38].

أما المنفعة المعنوية أو النفسية فإنها تتجلى في أن هذه النعم زينة للإنسان يسر به ويرتاح إليه حين يرى بمنظره الأزهار المتفتحة والبراعم الخضراء لها أثر نفسي وجمالي يروح عن النفس همومها فهذه الأشجار الوارقة وتلك الأزهار المختلفة الألوان ومنظر النبات وهو يكسو وجه الأرض بحلة خضراء كل ذلك غذاء نفسي روحي يشعر الإنسان بجمال الطبيعة وبهجتها وبعظمة خالقها سبحانه.

فعناصر الطبيعة الحية والصامتة لا تكاد تبدو بصورتها البهيجة ما لم تتشح بوشاح الخضرة من الزرع والشجر الذي تقطر على تلك العناصر الطبيعية رونقاً وبهاءاً ونضرة.

فالقرآن الكريم حين يظهر هذا الجانب المعنوي من نعمة النبات والشجر فإنما يفتح للنفس آفاقاً بعيدة تحملها على التحسس بجمال

الطبيعة، والتأمل في صفاتها الزاهية المشرقة يقول تعالى: ﴿**انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِه**﴾.

وفوق ما يحققه من غرض ديني بإظهار نعمة الله على الإنسان وإحسانه إليه.

فقد عبر القرآن الكريم عن مفهوم الجمال في الشجر بالزينة والبهجة فقال سبحانه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[39]. وقال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ وقد ابتهج بكذا أي سر به سروراً بأن أثره على وجهه[40]. وهكذا مفهوم البهجة يتصل بالنفس اتصالاً وثيقاً ويرتبط باحساسات الإنسان الباطنية بوضوح لما يحدثه في النفس من الارتياح ومجال النظر هذه هو مجال الفكر والاعتبار كما هو مجال استمتاع بهذه المناظر الطبيعية الخلابة وهذا المشهد الجميل وتستشف ما وراء هذه الإبداع والجمال من عظمة الخالق المبدع العظيم[41].

ولم تقتصر إشارة القرآن الكريم إلى النواحي الجمالية من النباتات فقط بل وردت إشارة إلى جمال الحيوانات ومظاهر الطبيعة الأخرى كالجبال والأنهار قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ**﴾[42]. وقال تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾[43].

بالإضافة إلى الفوائد العملية من هذه الحيوانات من أكل لحومها وشرب ألبانها والانتفاع بأوبارها وجلودها واستعمال بعضها في الركوب إشارة الآية الكريمة إلى مشهد الجمال والزينة من هذه المخلوقات[44].

وفي الجبال جاء قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود _ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[45]. ففي الآية اهتمام بذكر اختلاف الألوان في الجبال والناس والدواب والأنعام.

وقد يقول قائل أن المقصود بذلك اختلاف الأصناف والأنواع ولكن القرآن الكريم عندما يعدل إلى كلمة الألوان عن غيرها فمعنى ذلك أن هنالك زيادة في المعنى المقصود فلابد أن يكون اختلاف الألوان عن غيرها فمعنى ذلك أن هنالك زيادة في المعنى المقصود فلابد أن يكون اختلاف الألوان أثر على حياة الإنسان لأن ذكره جاء بهذا الشمول مع عناصر الأرض جميعاً فهذه الثمرات مختلف ألوانها وهذه جبال بيض حمر مختلف ألوانها وغرابيب سود وهؤلاء الناس يختلفون في ألوانهم كذلك ولا يكون المراد أن البشر مختلفون في أنواعهم فمعلوم أن الناس جميعاً من نوع واحد كما قال رسول الله ρ **(كلكم لآدم وآدم من تراب)**[46]. واختلاف الألوان في النوع الواحد آية من آيات الله تعالى جاء العلم الحديث ليفتح لها باباً واسعاً في علم الوراثة فأدرك العلماء سر اختلاف الناس في ألوانهم وصفاتهم عن بعضهم البعض بل حتى عن أقاربهم وذويهم. وهذا الاختلاف في الألوان على نفسية الإنسان فالأحمر يرمز إلى الإثارة والجاذبية، والأزرق يدعو إلى الهدوء والسكينة وعلى هذا قاموا بطلاء حجر المستشفيات الحديثة باللون الأزرق بدلاً من الأبيض لما لها من اثر في النفس[47].

وعندما ذكر الله تعالى نعمه على الإنسان لم يغفل الجانب الجمالي منها كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ _ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ _ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ**﴾[48].

ففي الآية الكريمة ذكر جميع الحبوب التي يقتات بها الإنسان كالحنطة والشعير وكل مشموم من نباتات تطيب رائحته والفواكه بأنواعها وذكر الريحان الذي هو أحد الرياحين التي تنعش صدر الإنسان وتزيد في سروره وسعادته وكذلك إخراج الثمرات رزقاً للعباد ينتفعون به كفاكهة أو كطعام أو جمال وزينة وفوق ذلك فهي نعمة لن الله تعالى هو الذي أنعمها على عباده وجعلهم يستفيدون منها من جميع النواحي ولهذا قال أول الأمر

﴿**رِزْقاً لَّكُم**﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[49]. فجمع بين المعنين في سياق واحد وهذا ما يشعر بان الرزق لا يفترق عن النعمة بحال من الأحوال بل هو أحياناً يأتي بمعنى واحد هو تحقيق المنفعة وإظهار الفائدة[50].

ويعلمنا القرآن الكريم بأن النبات زوجان أحدهما: مذكر، والآخر: مؤنثة وعندما يتم التلقيح بينهما يتم عقد الثمر قال تعالى: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[51]. أي وأنا خلقنا لكل ما خلقنا من الخلق ثانياً له. وكل منهما زوج للآخر[52].

وهذا التلقيح الذي يتم في الأزهار يساعد على نجاحه الرياح التي تحمل الحبوب المذكرة إلى أعضاء التأنيث قال تعالى ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**﴾[53]. وعلى هذا يعلق أحد المستشرقين بجامعة أكسفورد ببريطانيا بقوله (إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها علماء أوربا بأربعة عشر قرناً[54].

نعم إن أهل البساتين من العرب كانوا يعرفون ذلك.

وهذه الزوجية ليست في النباتات والحيوانات فقط وإنما في أمور لا نعلمها قد بدأ العلم الحديث يهتدي إلى بعضها كالشحنات السالبة والموجبة في الكهرباء وغيرها، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾[55].

المطلب الثالث
دورة الحياة في الأرض

مهما استعمل الناس من النباتات والمواد الغذائية فإن هذه تتعفن وتتحلل لتضيف المزيد إلى سطح الأرض من التربة الصالحة للزراعة لينموا فيها نبات آخر من جديد والأمر كذلك مع الحيوانات على اختلافها فلو استمرت هذه الجيف والمواد العضوية على حالها لضاقت بها الأرض ولكن شاءت الحكمة الإلهية أن تكون هناك على الأرض مخلوقات صغيرة الحجم عظيمة التأثير هي ما تسمى اليوم (بالبكتريا) التي تحلل المواد العضوية النباتية والحيوانية إلى عناصرها الأولية لتصبح جزءاً من التربة ينمو عليها النبات ويتغذى به الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾[56].

ذكر صاحب المنار أن الذين يقولون بوجود الحياة في الحب ويسمونها بخاصية الإنبات يمنعون أن تكون الحبة ميتة، ولكن هذا لا يصح لغة إلا بضرب من التجوز، لأنه حقيقة الحياة في اللغة ما يكون به الجسم متغذياً نامياً بالفعل وهذا أدنى مراحل الحياة عند العرب[57].

فالأرض فيها حياة مجازية بخروج النبات ولها موت كذلك بموته وتحلله إلى مواد أولية[58].

ولهذه الكائنات الحية على صغرها فوائد لا تحصى بالإضافة إلى ما ذكرنا فبواسطتها تتم عملية التخمر ونشاهد ذلك في اللبن يومياً كما أنها تعمل على تثبيت النتروجين في التربة إذ تأخذ نيتروجين الهواء وتحوله إلى نيتروجين مركب قابل لأن يمتص النبات وحين يموت النبات ويتعفن يبقى هذه النيتروجين المركب في الأرض ينمو عليه نبات آخر جديد[59].

وهذه الكائنات الحية المتعفنة تطلق ثاني أوكسيد الكاربون ليأخذها النبات الحي ويستفيد منه في بناء أنسجته وخلاياه بينما يطلق الأوكسجين الغاز الضروري لحياة الإنسان والحيوان ولو لم يكن هذا

التقدير في التحول من حالة إلى أخرى لما استمرت الحياة على الأرض إذ يكفي أن تعلم أن مقدار ثاني أوكسيد الكاربون في الهواء الجوي لا يكفي النباتات الأرضية سوى ثلاثين عاماً[60].

ولقد سوى الله سبحانه وتعالى بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى أن كل شيء يعد ثابتاً كما هو لا يطرأ عليه تغيير. فطاقة الشمس التي يأخذها النبات أثناء استخدامها في عملية التمثيل الغذائي يستفيد منها الإنسان عند اعتماده على هذه النباتات كغذاء ثم يعود ويتحلل من جديد لتختزن الطاقة من عملية التمثيل هذه ان تثبت ما مقداره (550) ألف مليون طن من غاز ثاني أوكسيد الكاربون سنوياً و(450) ألف مليون طن من الماء وينتج من ذلك مادة عضوية حية يقدر وزنها (375) مليون طن وينطلق من العملية (400000) ألف مليون طن من الأوكسجين سنوياً فتبقى شبه العناصر ثابتة تقريباً في الجو[61].

لقد اكتشف العلم مؤخراً أن هذه النباتات إنما تصنع مكوناتها العضوية من طاقة الشمس ومن الهواء المحيط بها وقليل جداً من التربة التي يعيش عليها ولقد أجرى أحد العلماء تجربة لقياس مدى استخدام النبات للتربة في غذائه بأن وضع كمية من التراب المجفف تماماً في إناء وزرع فيه نبتة صغيرة وأخذ يرويها بماء مقطر نقي وغطى وجه التراب بصفائح معدنية تتخللها ثقوب صغيرة متعددة وبعد خمس سنوات من إجراء التجربة قلع النبتة ونظف جذورها جيداً فوجد أن نبتته الكبيرة تزن أضعاف وزنها بينما لم ينقص وزن التربة شيئاً يذكر[62].

لقد بنى النبات جسمه من الهواء الجوي مستعيناً بطاقة الشمس والماء وبعض المواد المعدنية من التربة، ولذلك لم يكن عبثاً سر الربط بين الآيات الكريمة في قوله تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً _ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجا _ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتا _ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافا**﴾[63].

فالسراج الوهاج الذي هو حرارة الشمس ونزول الماء هما الأساسان المتعمد في علمليتهما بناء النبات. ففي قوله تعالى ﴿**فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً**﴾[64].

لقد جاء إخراج الحب المتراكب من اليخضور النباتي الذي له اليد الطولي في عملية نمو النباتات وما ينتج منها من ثمر وهذه الدورة التي تكمل بعضها البعض من النباتات ولتحولها من شكل إلى آخر نجدها أيضاً في الكائنات الحية التي لها من الضوابط ما يكفل توازنها وعدم طغيان بعضها على بعض.

فهذه الحياة على الأرض كل ما فيها يجري وفق الحكمة الإلهية المقدرة أحاط بها علم الإنسان أو لم يحط وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[65].

هوامش البحث

[1] سورة النحل: الآية (67).

[2] في ظلال القرآن: 4/ 2181.

[3] سورة مريم: الآية (24).

[4] ينظر: روح المعاني: 16/ 78، ينظر: في ظلال القرآن: 4/ 2307.

[5] الغذاء لا الدواء، صبري القباني: 129.

[6] المصدر نفسه: 127.

[7] مجلة المجتمع، عدد (382)، السنة الثامنة، الكويت، الأنعام: 99، الأنعام: 99.

[8] سورة الأنعام: الآية (99).

[9] سورة الرعد: الآية (4).

[10] تفسير المراغي: 3/ 203، ينظر: الكشاف: 8/ 158.

[11] البحر المحيط: 4/ 191، ينظر: تفسير المراغي: 3/ 203.

[12] تفسير الرازي: 4/ 107.

[13] سورة يس: الآية (80).

[14] سورة الأنبياء: الآية (30).

[15] ينظر: وجوه من الإعجاز القرآني: 179.

[16] سورة الواقعة: الآية (71- 72).

[17] سورة التين: الآية (1- 2).

[18] سورة المؤمنون: الآية (1- 2).

[19] سورة النور: الآية (35).

[20] ينظر: القرآن وإعجازه العلمي: 163.

[21] ينظر: المصدر نفسه.

[22] سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: 4/ 379.

[23] ينظر: الغذاء لا الدواء: 107.

[24] تفسير الرازي: 32/ 38.

[25] سورة النازعات: الآيات (30- 33).

[26] تفسير المراغي: 3/ 51.

[27] سورة الأنعام: الآية (65).

[28] الكشاف: 1/ 517.

[29] الكشاف: 1/ 518.

[30] تفسير الرازي: 4/ 98، ينظر: تفسير المراغي: 198.

[31] الله والعلم الحديث: 65.

[32] سورة الحجر: 19/ 21.

[33] التفسير الرازي: 19/ 171- 172.

[34] المصدر نفسه.

[35] مفردات القرآن كلمة (وزن): 543.

[36] سورة القصص: الآية (83).

[37] سورة لقمان: الآية (20).

[38] سورة طه: الآيات (53- 54).

[39] سورة الكهف: الآية (7).

[40] مفردات القرآن كلمة (بهيج): 63.

[41] في ظلال القرآن: 2/ 1152.

(42) سورة النحل: الآية (6).
(43) سورة النحل: الآية (8).
(44) في ظلال القرآن: 4/ 2161.
(45) سورة فاطر: الآية (27– 28).
(46) ينظر: جواهر القرآن الكريم، للشيخ طنطاوي: 8/ 115.
(47) في سبيل موسوعة علمية، أحمد زكي: 397.
(48) سورة الرحمن: الآية (10– 12).
(49) سورة إبراهيم: الآية (24).
(50) الطبيعة في القرآن، د. كاصد الزيدي: 90.
(51) سورة الذاريات: الآية (94).
(52) تفسير المراغي: 9/ 10.
(53) سورة الحجر: الآية (22).
(54) تفسير المنار: 1/ 21.
(55) سورة يس: الآية (36).
(56) سورة الروم: الآية (19).
(57) ينظر: تفسير المنار: 7/ 631.
(58) الكشاف: 1/ 517.
(59) العلم يدعو للإيمان: 76.
(60) الإسلام في عصر العلم: 356.
(61) المصدر نفسه: 358.
(62) بساطة العلم، ترجمة زكي فهمي: 45.
(63) سورة النبأ: الآية (15).
(64) سورة الأنعام: الآية (99).
(65) سورة القمر: الآية (49).